المشرق

رسولا الخير العام في مدينة السلام

لمة تاريخية للاب لويس شيخو اليسوعي (*)

انَّ للرهبان الغربيين من الايادي البيض على جميع انحاء الشرق ما تنطق به ألسنة العموم وتصرّح به جميع الآثار الباقية منذ القرون المتوسطة الى يومنا الحاضر فكانَ الغرب اراد ان يُبدي شكرهُ للشرقيين عمَّا نالهُ من فضل رهبان الصعيد والشام والجزيرة واليونان الذين هاجروا منذ القرن الخامس للميلاد الى جهات اوربَّا ونشروا العيشة الرهبانيَّة في اعمال ممالكها المتنصرة. فما فتئ الغربيون ان جاروا في تلك الحلبة المقدسة اخوتهم الشرقيين. ولم يزالوا يترقَّون في معارج الكمال حتى رأوا ما صارت اليهِ الاقطار الشرقية من التقهقر بانتشار البدع فحملتهم الغيرة على ان يمدُّوا الى اهلها يد المساعدة فأتى منهم فئات متوالية من بندكتيين وكمليين وفرنسيسكان ودومنيكان ويسوعيين وكبوشيين ولعازريين خدموا بلادنا اصدق خدمة بغيرة لم تعرف الملل ونزاهة يشهد لها كل الرواة الموثوق بهم. ولكلّ هذه الرهبانيَّات من المبرّات والمساعي الخيريَّة ما لو جُمعت اخبارهُ لأتت على عدَّة مجلدات ضخمة

وقد امتازت الرهبانيَّة الكرمليَّة منذ سالف الاعصار في محبة الشرق وخدمة

(*) استندنا في روايتنا لاعمال هذين المرسلين الى معلومات واسعة منها خطيَّة ومنها مطبوعة لمن عرفها حقَّ المعرفة راجع الكتاب Quarante ans à son Poste par Ordep والمقالة Un missionnaire médecin par Ordep

اهله واذ انتمت الى ذلك النبي الغيور ايليا الذي لم تمحُ الدهور آثار فضله في فلسطين والسامرة والجليل اتخذته ايضاً كمثالها في الدعوة الى الله والدفاع عن الدين

وليس قصدنا هنا ان نتتبع تاريخ رهبان الكرمل على الجبل المقدّس الذي انتسبوا اليه وانما اخترنا فقط زهرتين حديثتي العهد نجنيهما من تلك الحديقة الغنّاء وكلتاهما نشرت نفحة طيبها الذكيّة في حاضرة العراق فعطرت مدينة السلام بارجها نزيد بهما رجلي الاصلاح والفضل الاب ماري جرزف والاب داميان

*

في اواسط القرن السادس عشر قامت في اسبانية امرأة شريفة ازدانت بكل المواهب الطبيعيّة وجمعت في نفسها مزايا العقول السامية والقلوب المتقدة حبًا لله تُدعى تريزيا. فهذه انتدبها الله لإصلاح رهبانيّة الكرمل التي كان طرأ عليها لطول الاجيال شيءٌ من العتق الروحي والتراخي في حفظ قوانين اجدادها الصالحين فبعد ان اصلحت ادبرة الراهبات وتحشمت لبلوغ غايتها اعظم الشاق حاولت اصلاح الرهبان ايضاً بمساعدة قديس عظيم اشبهها فضلًا واقداماً وهو القديس بطرس القنطريّ فاتمّ الله على ايديهما ذلك المشروع الجليل وظهرت الرهبانية الكرمليّة في مجلى جديد من البرارة والغيرة

وكان من ثمرة ذلك الاصلاح أن طلب بعض رهبان الكرمل من الحبر الاعظم اقليمس الثامن ان يجعل لهم سهماً في التبشير بالايمان المسيحي في اقطار الشرق. فسرّ قداسة البابا لطلبهم وعيّن لهم بلاد العجم ليزرعوا فيها بذور الايمان وينشروا بين نصارى تلك البلاد من ارمن ونساطرة ويعاقبة حقائق الدين القويم

وكان المرسلون الاوّلون من بلاد ايطالية فخرجوا من رومية في اواسط تموز سنة ١٦٠٤ وكان امام الاحبار تسهيلًا لامورهم جعلهم كسفراء دولته الى شاه العجم عبّاس الاوّل المعروف بالكبير وسلّمهم رقيماً بخطه مع هدايا فاخرة يقدّمونها الى الشاه وكذلك آزرهم برسائل ملوكيّة بخطي امبراطور النمسة رودلف الثاني وملك پولونية سجسند. فكانت نتيجة هذه السفارة ان احتفى الشاه عبّاس بالوفد ورخّص للمرسلين بالسكنى في حاضرة اصبهان ومنحهم ملكاً يبتنون لهم فيه دارًا لاقامة فرائضهم الدينيّة

وكانت وقتئذٍ مملكة العجم تتناول جهات الافغان الى حدود الهند جنوباً وتمتدُّ شمالًا وغرباً الى انحاء الموصل وكانت البصرة وبغداد من جملة املاكها. فما ثبتت قدم المرسلين في اصفهان حتى ابحر احدهم الى اوربة وسعر في قلوب اخوته نار الغيرة لفلاحة كرم الرب في العجم فعاد وبرفقته مرسلون جدد اقتسموا انحاء بلاد فارس لخدمة نفوس اهلها فاحتلُّوا هرمز وشيراز وبندر عباس وهَمدان ولنكه وجُلفة

ثم تقدّموا الى العراق فسكنوا اوّلًا مدينة البصرة سنة ١٦٢٣ بهمّة احدهم المسمَّى الاب باسيل فاخذوا يدعون الى الايمان قوم الصابئة المندائيين المعروفين ايضاً بنصارى مار يوحنَّا (١ فردُّوا منهم كثيرين الى الدين الكاثوليكي وازهرت رسالة البصرة بهمّة المرسلين حتى ان لويس الرابع عشر ملك فرنسة منح رؤساءها رتبة القناصل بقرار رسمي امضاهُ سفيرهُ في الاستانة في تاريخ ٢٧ شباط سنة ١٦٧٧ فتولّج اعمال القنصليَّة منهم احد عشر رئيساً

اما بغداد فتأخر دخول المرسلين اليها حتى القرن الثامن عشر لما انيطَ الرهبان الكرمليون في طريقهم من العقبات بعد الحروب التي انتشبت بين الدولة العثمانية والعجم فاستولى السلطان مراد الرابع على بغداد ولم يسمح ولاتها للمرسلين ان يدخلوها. وبقي الامر على ذلك الى سنة ١٧٢١ حيث أُنشئت رسالة بغداد. فنال ايضاً رئيسها « الاب عمانويل دي سنت البار» منصب القنصليَّة الفرنسويَّة سنة ١٧٤١. وبعد قليل ازدهت هذه الرسالة كرسالة البصرة لا سيما برجوع النساطرة الى حجر الكنيسة الرومانيَّة وسار المرسلون الى جهات الموصل فاشتغلوا ايضاً بدعوة النساطرة الى الكثلكة فلم يخب مسعاهم فرجَّعوا منهم ٤٧٠ بيتاً لكنهم عادوا بعد قليل الى بغداد وسلّموا رسالة الموصل سنة ١٧٥٠ للآباء الدومنيكان

وكان الكرسي الرسولي منذ السنة ١٦٢٢ رأى حاجة بلاد العجم والعراق الى قصّاد رسوليين يهتمُّون بشؤون اهلها فاختار البابا غريغورس الخامس عشر احد الآباء الكرمليتان لهذه الرتبة وهو السيد طيموتاوس بيريز (Tim. Pérez) الاسباني. ثم صارت من بعده قصادة بابل تحت نظارة اساقفة فرنسويين اشتهر منهم ثلاثة

١) اطلب في المشرق (السنة ١٩٠٠ الى ١٩٠٣) مقالات حضرة الاب انستاس الكرملي في هذه الشيعة

رجال كان اولهم السيد جان دوفال (J. Duval) وكان من الرهبانية الكرمليتانيَّة يُدعى فيها برنرد دي سانتا تريزيا (١٦٣٨ — ١٦٦٩) فهدى الى نور الايمان عددًا عديدًا من النساطرة والارمن الغريغوريين وغيرهم . ثمَّ خلفهُ رجل مفضال كان من الاكليروس العالمي وهو السيد فرنسوا پيكه (Fr. Picquet) الذي تقلَّد رتبة قنصليَّة فرنسة في حلب ثم زهد في الدنيا واندرج في سلك الكهنوت حتى وقع عليهِ الاختيار للقيادة الرسولية في بابل فسافر الى بغداد لكنهُ لم يستطع ان يدخلها فسكن همدان القريبة منها وبها توفي في رائحة القداسة في آب من السنة ١٦٧٥ . واشتهر في القرن الثامن عشر الاب الكرمليتاني عمانويل السابق ذكرهُ فعهدت اليهِ رومية القيادة الرسولية فلما سُقِّف عُرف باسم عائلته فدُعي بالسيد باليه (E. Baillet) فاستفد الوسع في خير اهل العراق وأنمى بهمَّته عدد قطيعهِ نموًا عظيماً . ومات سنة ١٧٧٣ شهيد محبتهِ في خدمة المطعونين (المشرق ١٩٠٦ ص١١)

ثم بقيت قيادة بابل منسيَّة لما حلَّ وقتئذٍ بالكرسي الرسولي من المحن حتى استأنف تدبيرها السيد كوپري (Pierre — Alexandre Coupperie) سنة ١٨١٦ وربح شكر الاهلين بنشاطهِ واعمالهِ المبرورة . مات ايضاً ضحيَّة محبتهِ في خدمة المطعونين سنة ١٨٣١ . ثم خلفهُ كاتب اسراره السيد تريوش (Trioche) وهو اوَّل اسقف في بغداد عُرف رسميًّا بقاصد رسولي على ما بين النهرين والعجم . ثم استعفى فخلفهُ السيد انطون مرسياي (A. Mercial) الدومنيكاني (١٨٥٠) ثم السيد مبارك پلانشه (B. Planchet) اليسوعي (١٨٥٢) ثم السيد هنري امانطون (H. Amanton) الدومنيكاني (١٨٥٩) ثم السيد نيقولا كاستلس (Nicolas Castells) الكبوشي (١٨٦٤) ثم السيد لويس ماري ليون (L. M. Lion) الدومنيكاني (١٨٧٤) ثم السيد هنري فكتور التاير (H.V.Altmayer) الدومنيكاني (١٨٨٤) ثم السيد الحالي هنري درور (M^gr. H. Druhr)

امَّا الرسالة الكرمليَّة فانها بقيت متواصلة بعد انقطاع القيادة عنها لكنها خملت وضعفت نوعاً . وكانت انتقلت الى ايدي مرسلين ايطاليين فبقيت تحت نظارتهم الى اواسط القرن التاسع عشر . وممَّا يُخبرهُ اهل بغداد عن احد رؤسائهم الاخيرين الاب القرنس انَّهُ وأى سنة ١٨٤٥ عدوى الهواء الاصفر تفتك بدار السلام فتكاً ذريعاً .

ففي ٣٠ ايلول تضرّع الى الله ان يكفّ عن الحاضرة وطأة الداء وقدّم نفسهُ فداء عن الجميع في الذبيحة المقدّسة فأوحى الله اليه انهُ استجاب ملتمسهُ فأعلن للجمهور المؤمنين ان العدوى لن تعود تضرب احدًا من الاهلين ولكن سوف يموت رجل عزيز عليهم . فتمّ الامر في غد ذلك النهار بوفاة الاب الفونس وانقطاع الهواء الاصفر بغتة عن بغداد

*

تلك كانت حالة رسالة الآباء الكرمليتان في اواسط القرن المنصرم اذ حكم المجمع المقدس باعادة تدبيرها الى الرهبان الفرنسويين وبعودتهم دخلت الرسالة في طور جديد . واننا كان ذلك خصوصاً بهمّة المرسَلَين الصالحين العاملين اللذين تولينا نشر اخبارهما ليعرف الشرقيون ما لهما من الفضل عليهم ويخلّد البغاددة قبل الكل ذكرهما الطيب على صفحات قلوبهم فلا يفرقوا بينهما وقد اجتمعا في خدمتهم السنين الطوال فعُني الواحد بصلاح نفوسهم والآخر بعلاج مرضاهم وتفانى كلاهما في سبيل خيرهم العام

١ الاب ماري جوزيف

في جنوبي فرنسة مقاطعة شهيرة بخصبها كان يعمُّها سابقاً اسم بلاد غسكونيا وهي اليوم مقسمة الى عدّة معاملات منها معاملة « تَرن وغارون » باسم نهرين يجريان في وسطها ثم يصبّان في نهر جيروند المنتمي الى الاوقيانوس الاتلنتيكي في جهات بوردو احدى حواضر فرنسة

ففي تلك المعاملة في قرية عامرة تدعى لاماجيستار (La Magistère) قريباً من آجان (Agen) ومنتوبان (Montauban) ولد سنة ١٨٣٠ غستاف كنسل (Gustave Cancel) بطلُنا وكان مولدهُ في ١٦ حزيران وهو يوم عيد احد رسل فرنسة الشهيرين في القرون المتأخرة ومواطنهِ القديس فرنسيس راجيس اليسوعي الذي يقصد قبرهُ في ذلك اليوم الوف من الزوّار ينالون بشفاعتهِ العجائب المثبتة بثقتهم في فضلهِ عند الله

وكان اهل غُستاف من الملّاكين يستثمرون ملكهم بشغلهم الخاص فيرتزقون

بغلاته. على انَّ دينهم كان اوفر من دنياهم فسعى ابواهُ بحسن تربيته وعُنيت أُمهُ خصوصاً بان تطبع في قلبه روح التقى والبرارة فنشأ الولد ورعاً تقيًّا كما شاءت

وكان الولد مع تقاء ثاقب العقل متوقد الذهن لا يعصب عليه شيء من تعاليم المدرسة فأتقن بوقت قليل مبادئ القراءة والكتابة والحساب وشرع يتوق الى ما هو اسمى وارفع. ورافق شبابهُ شبوبَ الحرب بين فرنسة والامير عبد القادر فكان يرُّ الجند في بلدته ليسيروا الى الجزائر ثم يسمع بوقائعهم ومآثرهم فيتمنى ان يكتسب الشرف بينهم

الَّا انَّ الله كان يعدّ قلب الصبي لاحراز مجد اعظم من المجد العالمي. فانهُ لمَّا ترعرع واراد التقدُّم في العلوم ارسلهُ ابواه الى مدرسة آجان (Agen) الاكليريكيَّة حيث انقطع لدرس الآداب والفلسفة. وفي غضون دروسهِ قدم الى آجان رهبان كرمليون اتخذوا لهم ديرًا سكنوهُ فقدسوهُ بعيشتهم النسكيَّة وفضائلهم السامية حتى انتشر عرف براراتهم في تلك الانحاء. وقصدهم الشبَّان ليحذوا حذوهم ويأتسوا بامثالهم

فكان غستاف من جملة الذين سمعوا صوت الله في قلبهم فطلَّق العالم واباطيله وطلب الانضواء الى رهبانيَّة الكرمل فاجاب الرؤساء الى ملتمسهِ في حزيران من السنة ١٨٥١ وعمرهُ اذ ذاك احدى وعشرون سنة فدُعي باسم رهباني جديد وهو « ماري جوزف دي جيزو » (Marie-Joseph de Jésus) فجمع في تسميتهِ الطف الاسماء واشرفها « يسوع ومريم ويوسف »

قيل انَّ الفرنسوي طُبع على طلب الامور العظام فلا يرضى بالدون ولا الخمول فاذا قصد شيئاً اندفع اليهِ بل قواه لا يثبطهُ عن نواله عائق. فذلك ما نواه الاخ ماري جوزف منذ لبسهِ الاسكيم الرهباني فانهُ وجه نظرهُ الى اسمى الفضائل واقصى الكمال فتأسس اوَّلاً على السنن الرهبانيَّة والفرائض النسكيَّة ثم انقطع الى العلوم الدينيَّة حتى برع فيها لكنَّ اميالهُ كانت تجذبهُ الى فلاحة كرم الرب في الرسالات الاجنبيَّة ليقتاد الضالين الى سبيل الخلاص

فلمَّا كان في كركُّون يدرس اللاهوت مع اخوتهِ الرهبان كاشف رؤساءهُ برغبتهِ فوعدوهُ بتلبية طلبهِ عند نهاية دروسهِ وكذا تمَّ الامر سنة ١٨٥٦ فانَّ الرئيس العامَّ على الرهبانيَّة الكرمليَّة الاب « نوال دي سانتا حنة » (Noël de Ste Anne) رخصهُ بالرحلة الى الشرق لينقطع هناك الى اعمال المرسلين في خدمة النصارى

فتلقّى الاب ماري جوزف هذا الامر بملء السرور وما لبث ان اجرى في مرسيلية مع مرسلين آخرين من رهبانيته الى الاسكندرية ماريّن على جزيرة مالطة ثم اجتازوا الى يافا فزاروا الاراضي المقدّسة وانعشوا قلوبهم بمعاينة الامكنة التي تجوّل فيها ابن الله بصنع الخير وانتقلوا اخيرًا الى دير الكرمل في اوائل سنة ١٨٥٧ حيث قضى الاب ماري جوزف تلك السنة ليستعدّ لاعمال الرسالة في ذلك الجبل الجليل الذي قدّسهُ كثيرون من الانبياء الكرام كاليليا واليشاع والقديسين العظام كالقديس بروكرد والقديس سمعان ستوك من اجداد رهبان الكرمل فمطّر نفسهُ براتحة قداستهم واضرم قلبهُ بلهيب غيرتهم في تلك العزلة البعيدة عن ضوضاء العالم القريبة من الله وبين اخوة لا همّ لهم غير خدمة خالقهم

وفي غضون السنة طلب المجمع المقدّس من رئيس الرهبانيّة الكرمليّة ان يجعل رسالة بغداد في ايدي المرسلين الفرنسويين فاجاب الى رغبته وعيّن الابوين « كاشيهْ دي سنت ماري » والاب ماري جوزف ليقوما بهذا العمل وكان الامر قد اتاهما في اواخر تشرين الاوّل فما برحا ان تأهبا من وقتهما للسفر . وكانت الطريق في ذلك العهد شاقّة تُقطع مع القفول في اقفار تكثر فيها الاخطار وتلتحم الاكراد وغزوات العرب وذلك في اوائل الشتاء القارس البرد فقاسيا من اتعاب السفر ما لا يدنهُ لسان لاسيما الاب كاشيهْ الذي كان طاعنًا في السن حتى بلغا اخيرًا دار السلام في ٦ ك ٢ سنة ١٨٥٨

*

كانت بغداد بعد الحروب المتوالية التي وقعت بين الدولة العثمانيّة ودولة ايران في القرن الثامن عشر فقدت كثيرًا من رونقها السابق حتى صحّ القول فيها انّها صارت اثرًا بعد عين فنُهبت مرارًا وصارت اكلةً لمطامع بعض امراء الدولة وافنى الطاعون والهواء الاصفر قسمًا من اهلها وكان الولاة يتناوبون عليها بسرعة فلا يطلبون غالبًا الّا الاغتناء من تجارها بالحرق والجور

لكنّ هذه الحالة السيئة اخذت تتحسن نوعًا في عهد السلطانين محمود الثاني وعبد المجيد فدبّرها ولاة ذوو حزم ونزاهة اعادوا اليها شيئًا من رقيها السابق لاسيما داود باشا (١٨١٤ — ١٨٢٩) وخلفهُ علي باشا (١٨٣٩ — ١٨٤٣) الذي ضُرب

المثل بكرمهِ الحاتمي ثم كوزلكلي محمّد رشيد باشا (١٨٥١ — ١٨٥٦) من افضل الولاة واعظمهم شأناً وارغبهم في خير العموم

وكان المتولي على دار السلام لمّا وصل اليها المرسلان الفرنسويان السردارَ اكرم عمر باشا الذي تعقّب آثار غزاة العرب فكسر شوكة القبائل التي كانت تقطع السابلة في جهات الفرات الى نواحي دير الزور . ثم سار الى محاربة عشائر الاكراد الذين عدلوا الى العصيان على المملكة وما كاد يكبح جماحهم حتى استدعتهُ الدولة وعهدت بولاية بغداد الى مصطفى نوري باشا . فاستقبل عمر باشا الراهبين بكلّ انس ومدح زهدهما واكد لهما بانهُ يرعى جانبهما مثنياً على من تقدّمهما في بغداد من المرسلين الكرمليين

فشرع المرسلان منذ ذاك الحين يشتغلان في خدمة نصارى بغداد الذين عددهم لم يتجاوز وقتئذٍ الفي نسمة وكان اكثرهم كلدانياً وسريانياً من ابناء اولئك الناطرة واليعاقبة الذين ردّهم اخوتهم في القرن السابق . وكان هؤلاء المؤمنون مع قلة ذات يدهم مزدانين بالتقى وسائر الفضائل المسيحيّة لم يشوّه سذاجة طباعهم روح التمدّن العصري

واوّل ما باشر بهِ الابوان درس اللغة العربيّة ليحسنا الكرازة بتلك اللغة . على انّ الاب كساتيه لتقدّمهِ في السنّ رأى نفسهُ عاجزاً عن الامر فكان يلقي المواعظ في الافرنسيّة فيترجمها احد السامعين وبقي على ذلك الى سنة ١٨٦٢ حيث استدعاهُ الرؤساء من بغداد ليتلّدوهُ اعمالاً غيرها . اما الاب ماري جوزف فانهُ مع قلة معرفتهِ بالعربيّة وطّن نفسهُ على التكلّم بها حتى امكن البغاددة ان يدركوا معاني اقوالهِ بل صاروا بعد زمن يتلقون عظاتهِ بارتياح وربما اثّرت خطبهُ في قلوبهم حتى انّ الدموع كانت تجري مدراراً من عيونهم بل تسمع زفرات تحيبهم ندامةً على خطاياهم

وكان رافق وصول المرسلين الى بغداد تعيين قنصل فرنسوي عليها المسيو اوجان تستو (Eugène Tastu) الذي كان قدوة لنصارى بغداد بتدينه وسمو فضائلهِ وكان للمذكور والدة اشتهرت في الكتابة تُدعى السيدة أمابل (Amable) فألفت التآليف الشائعة بين ادباء وطنها وكانت ربّت ابنها احسن تربية حتى انهُ حبّاً بها لم يشأ ان يقترن بالزواج ليخدمها في اواخر ايام حياتها لمّا فقدت البصر فكان

١ الطيب الذكر ماري جوزف الكرملي

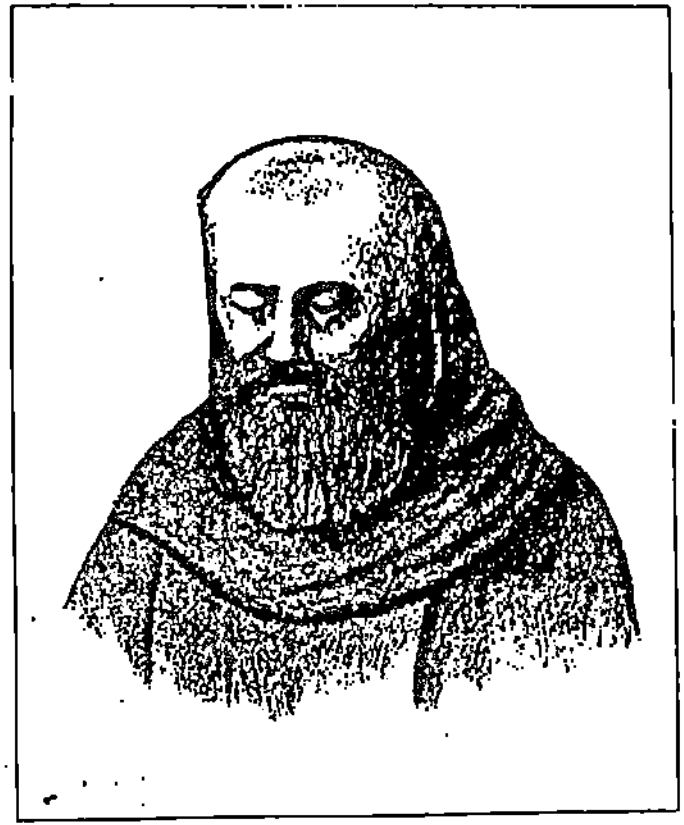

٢ الطبيب النطاسي الاب داميان الكرملي

برُّهُ بامهِ يؤثر بالجميع اي تأثير فيرافقهـا حيثما سارت لاسيما الى كنيسة الآباء الكرمليين فيقتربان معاً كل يوم احد من المائدة المقدَّسة

ومع انَّ الاب ماري جوزف بقي وحدهُ بعد سفر الاب كسائيه فلم يقصِّر عن اتمام كل واجباتهِ الكهنوتيَّة واعمالهِ الرسوليَّة بل كان يعود المرضى ويوزع الاسرار على المؤمنين ويراقب تعليم الاحداث في مدرسة الدير ويعدُّهم لقبول القربان الاقدس بل جعل يعلمهم اللغة الفرنسويَّة التي زاد الاقبال عليها بعد حرب القريم

وفي السنة ١٨٦٣ عزم الاب ماري جوزف ان يزور البصرة ومدينـة عمارة فركب الباخرة الانكليزيَّة التي تسير كل اسبوع من بغداد الى البصرة فوجد هناك دير رهبانهِ القدماء. وكان المرسلون لا يزالون يبشِّرون بشرون اهلها اذ جعلوا معاشاً لاحد كهنة الكلدان ليقيم الرتب الدينيَّة في كنيستهم ويعلِّم اولاد البصريين فثبَّت الاب ماري جوزف الكاهنَ على عملهِ وزار اهل البلد والقى عليهم المواعظ

ثم عاد الى بغداد مارًّا على مدينة عمارة وهي مدينة حديثة على ضفة نهر دجلة يسكنها فرقتان الصابئة او المندائيون الذين اهتمَّ رهبان الكرمل قبلاً بجذبهم الى الدين المسيحي فاجتمع الاب مـاري جوزف بشيوخهم واظهر لهم من التعطف ما قرَّبهم منهُ فكان يؤمل مذ ذاك الحين ان ينقذهم من الضلال فقصد لهذه الغاية ان يفتح هناك منزلاً لرهبانيته

على انَّ الاب ماري جوزف تحقَّق ان اتساع دائرة اعمال الرسالة كان يقتضي عددًا اوفر من المرسلين ليساعدوهُ في حصـاد الزرع الجيد فلم يرَ لذلك وسيلة الا بان يسافر الى روما باذن رئيسهِ العـام ليدعوا فعلة جددًا الى فلاحة كرم الرب ويستدرَّ حسنات المؤمنين لخدمة الشرقيين

ففي اواسط شهر كانون الثاني من السنة ١٨٦٤ اعتلى الاب ماري جوزف ناقة واكتسى بثياب اهل البادية ورحل من بغداد في رفقة جمَّال متوجهاً الى دمشق. وقد دوَّن تفاصيل تلك الرحلة التي استغرقت خمسة وعشرين يوما طاف في ثنائها البراري وتجشم الاخطار

ومما اخبر بهِ انهُ مرَّ باخربة برج بابل المعروف في العراق ببرج نمرود فرقي الى اعلاهُ ودسَّ في اطلالهِ ايقونةً للعذراء الطاهرة طالباً منهـا ان تبارك سفرهُ وتهديهُ الى

مرسل من رهبانيته يشاركهُ في خدمة آل بغداد ووعدها اذا اجابت الى دعوته بان يقيم هناك تمثالاً لذكرها فلم يكذب ظنهُ في ملكة السماء كما سترى

والتقى في طريقهِ بقبيلة غريبة الهيئة عجيبة الاحوال تعيش في الصحاري بصيد الغزلان وتمتاز عن عرب البادية بأخلاقها الطيبة وعاداتها السلميَّة ألا وهي قبيلة العُلَيب (١ التي رحبت بالمسافر وضافتهُ في خيامها يومين

ثم توغَّل في تلك الصحاري فخرج عليهِ العربان غير مرَّة وحاولوا سلب مالهِ وضبط ناقتهِ الَّا انَّ الراهب الصالح كان يتودَّد اليهم فيكاد يسحرهم بجودة طباعهِ وغلابة لسانهِ فيذكِّرهم بخالقهم ويشير اليهم بما يفيدهم في المعاش وتدبير اهلهم فكانوا يستعذبون كلامهُ ثم يردُّون لهُ ما سلبوه بل يرافقونهُ في طريقهِ لئلَّا يصيبهُ سوء فكان يسير بينهم وفي ايديهم الرماح كأنه قائد عسكر بين حاشيتهِ

قضى الاب ماري جوزف سنةً بنيف في اوربة فنال بركة الحبر الاعظم بيوس التاسع ثم تجوَّل في انحاء فرنسة فعرض لمواطنيهِ حاجات الرسالة البغدادية وبيَّن ما لها من العلاقات مع الدولة الفرنسويَّة منذ القرن السابع عشر فكان المحسنون يسرعون الى مساعدتهِ بمالهم

ولمَّا طلب بين اخوتهِ الرهبان الكرمليين من يتبعهُ الى العراق كان لدعوتهِ صدى في قلوب بعض الدارسين الذين وعدوهُ بان يأتوا لموازرتهِ عند تسنُّة دروسهم فسرَّ بمواعيدهم التي قاموا بها بعد ذلك. وزاد سرورهُ اذ لقي في ليون رجلاً كان اتقن فنَّ الطباية ونال الاجازة فيها فدخل في رهبانيَّة الكرمل وكان يدعى داميان وهو على وشك قبول الكهنوت فهذا اذ سمع الاب ماري جوزف يصف احوال العراق وعلم بعظم حاجة اهل بغداد الى طبيب ماهر يكون مرسلاً روحياً معاً قدَّم نفسهُ ليرافقهُ الى مدينة السلام

فعلم الاب انَّ البتول مريم استجابت صلاتهُ فطلب من جمعيَّة سيدة النصر (N. D. des Victoires) في باريس بان يكرموا عليهِ بتمثال العذراء لينصبهُ كما

---

١) اطلب وصف العُلَيب للاب انستاس في المشرق (١ : ٦٧٣) وفي مقالة رحلتنا الى بادية تدمر (المشرق ١٩٠٦ ص ٩٥٧)

وعد على انقاض برج نمرود فاهدوهُ شخصاً من شبَه البرونز وكتبوا عليهِ « انَّ اخوة سيدة النصر قد اقاموني فوق برج بابل بيد حضرة الاب ماري جوزف المرسل الكرملي في بغداد ». فاسرع المرسل عند مرورهِ في المكان بان يبدل الايقونة التي خبأها هناك من هذا التمثال الجميل مع صغر حجمهِ فبقي هناك مدَّة لكنَّ عرب البادية اكتشفوهُ بعد زمان وظنُّوهُ اثرًا قديماً فباعوهُ لاحد محبيّ العاديات في بغداد فاتى بهِ المذكور الى الاب ماري جوزف ليريهُ كما قال « تمثالاً عريقاً في القدم » وكان الصدأ قد علاه. فعرفهُ الاب ماري وقصَّ للرجل قصتهُ واقرأهُ الكتابة التي عليهِ ثم اخذه منهُ ونصبهُ فوق قبة الجرس في كنيسة المرسلين في البصرة

*

حدِّث ولا حرج بفرح البغاددة لدى مشاهدتهم الاب ماري جوزف عائدًا من اوربة ومعهُ مرسل متطبب يعالج مرضاهم ومستوميهم. وكان المجمع المقدَّس عيَّن في اثناء ذلك نائباً رسولياً على رسالة بغداد الاب كليمنت الكرمليتاني فكسبت الرسالة بكل هؤلاء حياةً جديدة واخذ اصحابها يُعنون بتوطيد اعمالها وتوفير اشغالها

وكان الاب ماري جوزف قُطب هذا الاعمال وسندها يقرُّ لهُ الجميع ببذل الذات والتفاني العظيم. ومن مساعيهِ الطيبة وقتئذٍ مباشرتهُ ببناء كنيسة واسعة تكفي لاهل بغداد نال لتشييدها من الباب العالي فرماناً. وذانك بذلك تاريخهُ ذو الحجة سنة ١٨٦٦. فاقيمت حفلة شائقة بحضور قنصل دولة فرنسا بليسيه دي رينيو (Pellissier de Reynault) واعيان بغداد الاجانب والوطنيين مع اكليروس الطوائف الكاثوليكيَّة لوضع الحجر الاوَّل لتلك الكنيسة في ٢٠ ايَّار سنة ١٨٦٦ يوم عيد العنصرة

واذ رأى الاب ماري جوزف انَّ النفقات لا تفي باتمام هذه البيعة استأنف السفر الى اوربَّة فجمع من ذوي الاريحيَّة والكرم ما سدَّد كافتها. وكان ذلك في سنة ١٨٦٩. وفيها استعفى الاب كليمنت من نيابة الرسالة فعهد المجمع المقدَّس بهذه المهمَّة الى الاب ماري جوزف فرجع الى بغداد وهو مرتبط بروابط جديدة زادتهُ غيرة وعناية. وبعد سنتين انجز بناء الكنيسة التي عُدَّت طرفة من طُرف العراق اذ يبلغ

طولها ٣٤ متراً وعرضها ١٩ م وعلوّها ١٣ . وكان تدشينها الاحد السابق لعيد الميلاد سنة ١٨٧١ بعد ١٥٠ سنة لفتح الرسالة الكرمليّة في بغداد

فما لبثت الكنيسة الجديدة ان صارت مركزاً لكثير من الاعمال الرسوليّة والرياضات التقويّة والاخويات للرجال والنساء والاحداث

ثم افرغ الاب ماري جوزف كنانة جهده في تحسين حالة مدرسة الرسالة فوفّر عدد معلميها ووسع نطاق دروسها وتعليم لغاتها من عربيّة وافرنسيّة وانكليزيّة وتركيّة حتى عُدّت في مقدّمة مدارس الحاضرة وزاد في ابنيتها ما يليق براحة الاحداث وترويح افكارهم . بل عُني بانشاء جمعيّة للشبّان يجتمعون في اوقات معلومة ليتكاتفوا في عمل الخير ويقووا بالاتحاد

ثم وجّه الاب ماري جوزف فكرهُ الى بقيّة الرسالة فابتنى سنة ١٨٨١ كنيسة جديدة في البصرة وألحق بها مدارس للفتية والفتيات

وفي السنة ١٨٨٤ اقتنى في بلدة « عمارة » ملكاً واسعاً اقام فيه مدرسة وكلّ التعليم فيها الى احد كهنة الكلدان وابتنى معبداً للسكان النصارى

ولمّا ضاق دير الآباء المرسلين برهبانه في بغداد لم يرَ بدّاً من استئناف بنائه على طرز جديد وتوسيع قلاليه ومعاهده جامعاً بين حسن الذوق في الهندسة والسذاجة الرهبانيّة . وكذلك اشترى في ارباض المدينة جنينة يجد فيها المرسلون نصيباً من الراحة في اتعابهم لاسيما في أبان الصيف الذي يستعر اوارهُ في بغداد فتثقل وطأتهُ على اهلها عموماً وعلى الاجانب خصوصاً

وقد اهتمّ ايضاً بدير « راهبات التقدمة » اللواتي كان اتى بهنّ من مدينة طور في فرنسة القاصد الرسولي السيد ليون (M^gr Lion) فساعدهنّ الاب ماري في تجهيز ابنية دارهنّ ومدارسهنّ واعمالهنّ الخيريّة

ولم تكن هذا المشروعات لتستنفد همّة رئيس الرسالة الكرمليّة بل كان يقدّم على كلّ اشغاله تدبير اخوته وخدمة النفوس لا يثبطهُ عن العمل شيء من المتاعب والمشقّات لاسيما في اوقات الحاجة . ففي السنتين ١٨٧٦ و١٨٧٧ اذ فشا الطاعون في بغداد كان اوّل من بادر الى خدمة المطعونين فجازاه الله بان نجى الكاثوليك من ذلك الداء فلم يحدث بينهم غير حادثين فقط مع كثرة من أصيب حينئذٍ في دار السلام

وكان اهتمامهُ بالفقراء والمعوزين مشهوراً لا يدع فرصةً في سدّ حاجاتهم وتلطيف اوجاعهم . وابتنى لاولادهم مأوى كانوا يجتمعون فيهِ ويتعلمون مبادئ الدين المسيحي وينالون ما يحتاجون من طعام وكساء . ساعدهُ في ذلك احد رجال الخير في بغداد جبرائيل افندي اصفر الشهير بمبرّاتهِ

ومن مآثر غيرتهِ انهُ كان لا يخاف لومة لائم في الدفاع عن صوالح رهبانهِ والانتصار لحقوق الكاثوليك حتى بازاء رجال الحكومة او متولجي اعمال القنصلية

فهذه الاعمال وغيرها ايضاً لا يسمح لنا ضيق المكان بوصفها استوقفت انظار الدولة الفرنسويَّة التي احبَّت مجازاة ذلك الراهب العظيم بان منحتهُ امتيازاً خصوصياً ووسمتهُ بوسام الشرف (Palmes académiques) فأقيمت لذلك حفلة عظيمة في ٦ كانون الثاني سنة ١٨٩٨ وهي السنة الاربعون لقدومهِ الى الرسالة البغداديَّة حضرها رؤساء الطوائف الكاثوليكيَّة وقنصلا فرنسة وروسية ووجوه دار السلام من وطنيين واجانب فقام المسيو رُوِه (M' Rouet) وخطب خطبة بليغة عدَّد فيها مآثر الرسالة الكرمليَّة في بغداد وخصوصاً مبرّات ونيسها المفضال المتفاني في خدمة الدين والوطن وسلَّمهُ الوسام الشرفي . وورد باسم صاحب العيد في ذلك النهار نبأ برقي من رئيس مجمع انتشار الايمان يقيدهُ ان الخير الاعظم لاون الثالث عشر يهنئهُ ويباركهُ ويبشرهُ بارسال رقيم بخطهِ . فكان كل جمهور الحضور لساناً واحداً في اطراء ذلك المرسل الشهم وتقدمة التهاني بتلك الامتيازات اللائقة بصاحبها

على انَّ هذه اصوات الثناء لم تكن الَّا صدى وتوطئة للجزاء العظيم الموعود بهِ العبد الصالح الامين اذ يدعوهُ الله للدخول الى فرح سيدهِ . فانَّ الاب ماري جوزف لم يلبث ان شعر بخمض مرض قديم في امعائهِ كان لا يكترث لهُ فعرف ان ساعتهُ قد دنت فاستعدَّ لها بكلّ تُقى وصبر واقبل كل اسرار الديانة مع البركة البابويَّة بيد السيد النائب القاصد الرسولي فانطفأ سراج حياتهِ بكل هدوء في ظهر اليوم الثامن عشر من آب سنة ١٨٩٨ فعُدَّ موتهُ مصاباً عمومياً فبكاه كل من عرفهُ من اهل بغداد واسمهُ لا يزال مطبوعاً على صفحات قلبهم يرددونهُ حتى اليوم بالشكر كلما شاهدوا آثار اعمالهِ المخلدة رحمهُ الله واجزل ثوابهُ

٢ الاب داميان

هو رفيق السعيد الذكر الاب ماري جوزف وثمرة ابتهالاته من مراحم السيدة البتول يوم ظهر ايقونتها المباركة على انقاض برج نمرود

ولد الاب داميان في سان سنفوريان في مقاطعة الجيروند (la Gironde) ليس بعيداً من موطن الاب ماري جوزف سنة ١٨٢٨ من ابوين متوسطي الاحوال وكان ابوهُ يدعى بتالي (Battailley) فدعى الولد في المعمودية بطرس دميزه فنشأ ديناً ورعاً بين اقارب مشهورين بالفضل والصلاح. ثم أُرسل الى مدرسة بازاس (Bazas) فاتقن فيها دروسهُ الادبيَّة. ثم شعر بميل الى فنّ الطبّ والعلوم الطبيعيَّة فانتقل الى باريس وانكبَّ على الدروس الطبية برغبة عظيمة ادَّت به الى النجاح في الامتحانات السنوية فنال في سنة ١٨٥٤ اجازة الدوكتوريَّة

وكان الشاب الدارس قد حافظ مدَّة دروسه على الآداب الدينيَّة واتخذ الدرس كحِصنٍ يصونهُ من ضربات الكفر وفساد الاخلاق فعاد الى مدينة بازاس مسيحياً صادقاً وطبيباً نطاسياً فاخذ يتعاطى فنَّهُ بكل نشاط فشاع بعد قليل حذقهُ بحسن المعالجة والرفق بالفقراء واشتهر في الانحاء المجاورة حتى كان المرضى يطلبونهُ بالحاح ثم فكر الطبيب باتلي بان يتأهل فخطب فتاةً من مدينة بوردو وكادت تتم حفلة الزواج اذ فُكَّت الخطبة بغتةً سواء كان السبب بتغيير الابنة فكرها كما قيل او لالهام خاص من الله اراد ان يدعو ذلك الشاب لخدمته زهداً في الدنيا ورحمةً باهل الشرق كما هو المرجَّح

ومن المقرَّر الثابت انَّ الدكتور طلب الى رئيس الكرمليين في بوردو بان يقبلهُ بين رهبانهِ فبعد فحص دعوة الطالب البسهُ ثوب الرهبانيَّة فابدل اسمهُ باسم طبيب عربي شهيد يدعى داميانوس فسمي الاب « داميان دي سان جوزف »

انَّ هذا الانقلاب في حالة الدكتور باتلي اذهل اصحابهُ وظنَّ بعضهم انَّهُ لن يثبت على عزمهِ لكنَّ الشاب الهمام لم يكن ممن يضعون اليد على المحراث ثم يرجعون الى الوراء بل كان مثلهُ كمثل الرسل الذين تركوا كل شيء لمَّا سمعوا الرب يدعوهم فتبعوه دون تردُّد

ثم ابتدأ الراهب الجديد ان يدرس علم القداسة ليطبع في نفسهِ الفضائل السامية التي تفوق على كل العلوم البشرية واذ كان الاكبر بين اخوتهِ الطالبين جعل نفسهُ الاصغر فكان بينهم كواحد منهم بل كآخرهم فاذا رآه احد ظنهُ رجلًا خاملًا كبقيَّة المبتدئين وهو لا يشير البتة الى رتبتهِ في فنّ الطبابة

وبعد ان اتمّ الاخ داميان زمن الامتحانات المألوفة في الرهبانيَّة وابرز النذور الثلثة انكبَّ على الدروس الدينيَّة حتى حصَّل منها ما يحتاج اليهِ في خدمة القريب فنال نعمة الكهنوت وأُرسل سنة ١٨٦٤ الى دير رهبانيتهِ في ليون على تلّ فورفيار (Fourvière) في ظلّ الكنيسة الشهيرة المبنيَّة على اسم السيدة الطاهرة والمقصودة من كل انحاء البلاد

فكان هناك منذ بضعة اشهر مهتمًّا بالخدمة الدينيَّة اذ مرّ بليون الاب ماري جوزف كما سبق القول فتعرَّف بوطنيّ الاب داميان وثبت لهُ انهُ هو هو الرجل الذي اعدَّتهُ البتول لمساعدته في الرسالة البغدادية وانهُ لا يجوز ان يبقى ذلك النور تحت المكيال فاقنع الاب داميان بان يرافقهُ الى العراق ليخصّ نفسهُ بخدمة اهلهِ فيعالج الاجساد ويتوصل بها الى تقديس الارواح

*

قد رأيت كيف تحفَّى اهل بغداد بالمرسل الجديد اذ علموا انَّهُ طبيب قانوني وخريج كليَّة باريس فلم يسعوهُ منذ ذاك الحين الّا « البادري (الاب) الحكيم » وتضاعف فرحهم به اذ اعلن للجمهور انهُ مستعدّ ان يعود المرضى في بيوتهم ويستقبل الذين يطلبون خدمتهُ في الدير وكل ذلك مجّانًا لوجه الله

ولم تكن تلك المواعيد كلاماً فارغًا فانَّ الاب داميان باشر بمهنتهِ في اوَّل اسبوع قدومهِ الى بغداد مستعيناً بترجمان في فحص المرضى لكنهُ جعل من وقتهِ يدرس العربيَّة تسهيلًا للمعاملات مع الجميع

عاش الاب داميان ثلاثين سنة في مدينة السلام كانت حياتهُ في مدَّتها متشابهةً متساويةً اوَّل ايامها كآخرهِ لم يباشر فيها من الاعمال ما يطنطن بهِ الناس وتستعظمهُ الالسنة فما كان خطيباً مفوَّهاً او واعظاً بليغاً ولا كاتباً مبرزًا وانَّما كان اشبه بزهرة البنفسج العطرة التي تنشر شذاها مختفية بين النبات او

بالحري كان اشبه باحد انهار العراق التي تجري بكل هدو وجلال فتخصب كل البقاع بمسيرها او نقول انهُ كان كسيدهِ المسيح الذي اجتاز على الارض يُحسن الى الناس (اعمال ١٠: ٣٨)

وعرف الاب قبل كل انهُ مرسل رسولي وانَّ غايتهُ بمجيئهِ الى العراق انما هي خلاص النفوس كبقيَّة اخوتهِ الَّا انَّ دعوتهُ ان يخدم الاجساد خصوصاً بينما يفرغ اخوتهُ وسعهم في خدمة الارواح بالوعظ والتبشير. ومن ثمَّ كان يخص باكورة نهارهِ للاعمال الروحيَّة فيزوّد نفسهِ بالفضائل التي يحتاج اليها في خدمة القريب كالصبر وطول الاناة وصفاء النيَّة ونظر الله في القريب

وكان يقسم نهارهُ ثلاثة اقسام: قسم يقضيهِ في مستوصف الدير ليعاين من يأتيهِ من ذوي العاهات ووصف الادوية التي توافق احوالهم. وقسم كان يقضيهِ في عيادة المرضى الملازمين لبيوتهم. وقسم في تلاوتهِ في الصلاة او في الدرس او التدريس

وكان للاب داميان همَّة في علاج المرضى لا تعرف الملل فكان مستعدًّا في اي ساعة طلبوهُ ليلًا او نهارًا ان يترك كل شيء حتى اكلهُ ونومهُ لتمريضهم وتلطيف اوجاعهم وربما سار في اليوم الواحد مرارًا الى اقاصي المدينة

وكان فضلًا عن همَّتهِ لا يراعي الاشخاص في خدمتهِ للمرضى سواء طلبهُ الفقراء او الاغنياء الصغار او الكبار بل كان يفضّل الفقراء المساكين اعلمهِ بانَّ ذوي الثروة يستطيعون ان يجدوا غيرهُ لمعالجتهم

وكذلك كان لا يفرق بين ذوي الاديان فيعود المسلمين واليهود كما يعود النصارى وكثيرًا ما كان يوقفهُ الناس في الطريق ليعرضوا عليهِ ادواءهم او يقودونهُ الى احياء من المدينة لا يعرفها فما كان يتردَّد في مرافقتهم مُنزلًا نفسهُ منزلة بولس الرسول فيجعلها كلًّا للكلّ ليربح الكلّ لله

وكانت همة الاب داميان تتضاعف في ايام العدوى حتى انهُ حينئذٍ كان يواصل الشغل الساعات الطوال فينسى راحتهُ ويعرّض بنفسهِ للمخاطر دون مراعاة لصحَّتهِ فكان الجميع ينسبون سلامتهُ الى عناية خاصة من الله

وكان مع هذا لا يهمل الاب داميان المطالعة ليعرف الاكتشافات الطبيَّة الجديدة فيستفيد منها للمرضى. بل كان يدرس الادوية المفردة التي يستعملها البلدة

في بعض الامراض على طريقة التقليد وراثةً ابًا عن جدّ فاذا رآها نافعةً وصفها للاهلين (١ وكان ايضاً لا يثق بنفسهِ مع علمهِ بل يجبّ ان يفاوض غيرهُ من الاطباء ويستشيرهم وقد شهدوا غير مرّة لبراعته واستندوا الى رأيهِ كالدكتور طولوزان (Dr Tholozan) كبير اطباء شاه العجم الذي زارهُ في بغداد وكان يكاتبهُ ويعتدُّ برأيهِ لاسيما في الامراض المعدية كالطاعون والهواء الاصفر وقد ذكرهُ في كتبهِ باسمهِ العالميّ . وكذلك الدكتور بومان (Dr Bawman) طبيب قنصلية بريطانية العظمى الذي كان يكرّر على من يأتيهِ من المرضى انَّ معالجات الاب داميان مبنيّة على علم وتروٍ فانهُ خير طبيب

وكانت ثقة الاب داميان بربهِ اعظم منها بالادوية الطبيعيَّة فكان يذهب الى المرضى وسبحة العذراء في يدهِ والصلاة على لسانهِ فاذا اعتاص عليهِ الداء التجأ الى رب الشفاء وربَّما نال بذلك ما ينس من نوالهِ بالعلاج الطبيعي. وقد شهد بعض المرضى انَّ صلاتهُ فعلت ما لم تفعلهُ الادوية حتى شاع في بغداد انَّ الاب الحكيم يبرئ الاسقام بقداستهِ اكثر منه بادويتهِ. وكان في بعض الاحيان يمزج بالادوية بعض نقط من ماء سيدة لورد العجائبي او يحضُّ المرضى على التماس شفاعة البتول الطاهرة او لبس ثوبها فيشفون اذا فعلوا

وكان اهتمام الاب داميان لا ينحصر بالاجساد بل كان يسعى طاقة جهدهِ ان يسعف النفوس ايضاً . فكان في كل زياراتهِ المستومين يوجه نظرهم الى خالقهم فيعلمهم انَّ في يدهِ الصحَّة والمرض الشفاء والموت فيُنهض املهم ويرقي افكارهم ويلهمهم الصبر من اي دين كانوا. اما النصارى فكان يحثهم على تنقية ضميرهم وطلب الاسرار فكان لديهم طبيباً جسديًّا وروحيًّا معاً. والله وحده يعلم كم صالحَ من الخطأة مع ربّهم وكم صبغ من الاحداث بماء المعمودية. وكان مثالهُ الصالح يجتذب اليهِ كل القلوب حتى ان كثيرين من اهل بغداد وشبَّانها اتخذوه كمرشد لحياتهم الروحية فاصبحوا قدوةً للجميع بسلوكهم المسيحي

(١ وقد جرى في ذلك على مثال الاب الكرملتاني « انج دي سان جوزف » المرسل الكرملي في اصفهان في القرن السابع عشر الذي كان وصف الادوية الشائعة في العجم فطبع وصفهُ لها في باريس ١٦٨٠ تحت هذا العنوان : « Pharmacopea Persica »

ومما كان يذكرهُ اهل بغداد بالشكر والثناء تجرُّد الاب داميان ونزاهتهُ فانهُ ليس فقط لم يطلب جزاء عن تعبهِ بل كان يرفض اي هديَّة كانت لا يريد بدلًا عن شغلهِ سوى مجد الله وخدمة البشرية الَّا اذا كان احد المرضى الاغنياء يعطيهِ شيئاً للفقراء فكان يقبلهُ كوديعةٍ ولا يلبث ان يوزعهُ على المساكين

ومع وفرة اشغال الاب داميان في علاج اهل بغداد قد ادَّى للرسالة خدماً جليلة بصفة معلّم فكان يدرّس في مدرسة الآباء الكرمليتان الآداب الفرنسويَّة والرياضيَّات كمبادئ الجبر والهندسة وقد اخذ عنهُ عدَّة شبَّان معارفهم فيشكرون حتى اليوم فضلهُ جهارًا وينسبون اليهِ ما نالوهُ من الرقي

وكان الاب مغرماً بهذه العلوم الرياضيَّة ويحبُّ التعاطي بها في اوقات الفراغ فيحلّ مشاكلها العويصة. وقد ظهر فضلهُ في احدى السنين اذ وقع جدال بين اساتذة مدرسة بغداد العسكريَّة ومعلمي بقيَّة المدارس بخصوص مسألة جبريَّة فعرضوا المشكل على رجل الادب سليمان افندي البستاني احد اعضاء مجلس الاعيان حاضرًا ومعرّب الالياذة فاشار اليهم بمراجعة « الاب الحكيم » ففعلوا ولم يابثوا ان اتَّفقوا جميعهم على حسن فضِّهِ للمشكل بطريقة واضحة مستوفية

ومن آثار الاب داميان انهُ خطب غير مرَّة في مواضيع علميَّة في دائرة الشبان الكاثوليك المنشأة في بغداد وكان يختار لابحاثهِ الاكتشافات الحديثة فيدرسها درساً نعمًا ثم يعرض على العموم خلاصتها. فخطب في اكتشافات باستور والادواء الميكروبيَّة وعن اكتشافات الدكتور كوخ في السلّ. ودرس بخصوصاً المواد السامَّة لمعالجة الملسوعين من الحيات والعقارب والزنابير في بغداد

وقد ارسلهُ رؤساؤهُ الى البصرة والى عمارة والى الموصل لبعض حاجات الرسالة وترويح النفس من تراكم الاشغال فكان يقدّس اسفارهُ بمناجاة الله وخدمة المسقومين فيثني الجميع على قدوتهِ الصالحة وبرارة حياتهِ

وبقي الاب داميان سنين طويلة دون مستوصف يستقبل فيهِ الوافدين من المرضى الى ان سدَّ السيد التاجر هذا الخلل وفتح مستوصفاً في الدار الاسقفيَّة القديمة سنة ١٨٩٢ وعهد بتدبيرهِ للاب داميان وعيَّن راهبةً تساعدهُ في العمل فلقي في ذلك بعض الراحة. ثم اوصى احد الفرنسويين الاتقياء المسيو اشيل مورا .M[3] A)

(Murat ترجمان قنصلية فرنسة قبل وفاته بان تجعل دارهُ مستوصفاً لفقراء بغداد فجُهزت هذه الدار تجهيزًا تامًا وأُقفل المستوصف الاوّل فانتقل اليهِ الاب داميان

لكنهُ لم ينتفع منهُ زمناً طويلًا اذ رآه الله ثمرة جنيَّة تصلح للحديقة السماوية فابتلي في شهر نيسان من السنة ١٨٩٦ بداء الفالج وبقي لا يكاد يعي لحالهِ الى شهر تشرين الاوّل فمات ميتة الابرار بقبلة الرب في السادس منهُ . فما طار منعاه الى اهل المدينة حتى توارد الوف منهم لنظرهِ النظرة الاخيرة فكانوا يرددون عبارات الاسف على من غمرهم بفضلهِ وكان كثيرون يحملون على جسمهِ ادوات تقوية يتبركون بها . وحضر حفلة جنازتهِ جمٌ غفير يتقدمهم قنصل روسية المتولي ادارة قنصليَّة فرنسة في غيبة صاحبها وكان لسان حالهم جميعاً يكرّر آية النبي داود : انهُ لكريم في عيني الرب موت اصفيائهِ ولتمت نفسي ميتة الابرار

فهكذا قضى حياتهما هذان الراهبان الجليلان اللذان اسعدنا الحظ برؤيتهما في بغداد قبل وفاتهما بقليل فليقبلا منَّا هذه الاسطر كدليل على شكرنا وشكر كافة اهل مدينة السلام على فضلهما العميم اجزل الله ثوابها في دار البقاء ومتّع بلادنا بامثالهما

تاريخ حوادث الشام ولبنان

من السنة ١١٧٩ الى ١٢٥٧ هـ (١٧٨٢ الى ١٨٤١)

عني بنشرهِ الاب لويس معلوف اليسوعي (تابع)

ثم ان الباشا لم يزل يصدر اوامر مكربة . من جملتها ان النصارى لا يلبسوا اخضر ولا زيتي وان الحريم يجعلوا اغطيتهم وملبوسهم اسود الى المشد والبابوج . وامسك جماعة فلاحين من الجبل وزحلة متزيّين بجزام صوف اخضر يساوي خمسين فضة . فلما نظرهم الباشا تداخلهُ العجب والانذهال وصار يصفّق بيديهِ ويقول : ما هذا الحال ويصير يستعفي من الامام عمر بمطاولة النصارى . ثم التفت اليهم وقال : ايش مذهبكم . قالوا : نصارى . فقال : كيف تلبسون اخضر وتتجاسرون على ذلك . فقالوا :